ألينا شرودر

دائماً ما يسود

عندكم هدوء مخيف

رواية

ترانزيت

1989

لطالما سرقت سيلفيا الكثير في حياتها، لكنها لم تسرق سيارة أبدًا حتى الآن. لذا فكرت في نفسها قائلة: هل يمكنني شطب ذلك من القائمة؟

ولكن ...

هل يُعتبر امتلاك نسخة من المفتاح بمثابة السرقة؟ إلا أنها لم تضطر للسطو على سيارة ديرك ماركة بولو حمراء اللون وتشغيلها عنوة، كما أنها لم تحطم زجاج السيارة لسرقتها، بل استعارتها ببساطة لفترة غير محددة دون أن تسأل ولم يكن لديها أية نية لطلب الإذن من ديرك بعد ذلك. دع الأحمق يعتقد أن السيارة قد اختفت، لأنه كان يقضي معظم وقته منتشيًا بتأثير المخدرات على الأريكة المخملية بنية اللون في شقتهم المشتركة الكائنة في فناء خلفي بحي كرويتسبرج البرليني ولا يدرك أي شيء مما يدور حوله. وإذا ساءت الأمور عما هي عليه يمكنها أن تزعم دائمًا أن ديرك قد أعارها السيارة بمحض

إرادته، وربما تقول أنه أهداها إياها. ومن كان الناس سيصدقون حينها، هل صاحب البيت الغائب عن الوعي بسبب المخدرات أم هي الأم حديثة الولادة؟ حسنًا.

اللعنة على ديرك في كل الأحوال. فقد كانت تشعر بغضب شديد تجاهه، وهو ما ينطبق تمامًا على إيريس وزيكي. إذ يمكنهما التشدق طوال اليوم بالحديث عن التضامن، بينما يعتبران طلب القليل من المراعاة لوجود طفلة حديثة الولادة أمرًا يتسم بالمغالاة. فقط أن يفتحا نافذة المطبخ عندما يملآنه بدخان سجائرهما، أو أن يخفضوا من أصواتهما عندما يتضاجعان، حين تكون الرضيعة قد راحت في النوم لتوها. أو ربما طهي طعام حقيقي من حين لآخر، حتى وإن كانت سيلفيا من تتولى هذه المسألة دائمًا، حيث كانت تُعد كميات كبيرة من الطعام مرة واحدة ليتناولها الجميع طوال أسبوع، لأنها لم تكن قادرة على جلب الخضروات الطازجة من الجمعية الاستهلاكية التي كانت تعمل بها أثناء النهار. فمنذ أن عادت من المشفى بقلب مكسور وثديين يؤلمانها، لم يعد هناك ما يمكن تناوله سوى شطائر الجبن، كما كسى العفن الأطباق المتسخة في حوض مطبخ السكن الجماعي.

قادت سيلفيا السيارة في شارع كانتشتراسه تجاه الغرب لتنحرف بها عند مركز المؤتمرات الدولي الكائن في غرب برلين مثل سفينة فضاء رمادية اللون صوب الطريق السريع أفوس. حيث تنوي تزويد السيارة بالوقود عند جسر شبينر بآخر ما تبقى معها من نقود، قبل أن تصل إلى منطقة العبور، الترانزيت. صحيح أن سعر الوقود كان أرخص في هذه المنطقة، إلا أنها لم ترغب في التوقف هناك حقًا. كان بوسعها فقط أن تأمل أن يكفيها خزان الوقود الممتلئ حتى مدينة إيلدينجن، وألا يسبب لها حرس الحدود أية مشكلة في دراليندن كي لا يتعين عليها الانتظار مطولاً، وألا تستيقظ هانا مرة أخرى وتشعر بالعطش إلا عندما يصلان إلى ألمانيا الغربية. بلاد الغرب.

كانت هانا مستلقية وهي غارقة في النوم إلى جانب سيلفيا في سلة غسيل بلاستيكية رمادية اللون مبطنة بمناشف وحفاضات من الشاش على مقعد الراكب المرافق. حيث أطلت يدها اليسرى الصغيرة وقد ضمتها في شكل قبضة إلى جوارها من تحت بطانية الأطفال الرضع التي سرقتها سيلفيا من المشفى. حسنًا، سوف يعجب حرس الحدود ذلك ، رضيعة عمرها ثلاثة أشهر وقد رفعت قبضتها

بالفعل بتحية الاشتراكية، ربما يتركونها تواصل السير على سبيل الاستثناء دون الحاجة لأن تخرج من السيارة لتفتح صندوق السيارة وكل هذا الهراء.

أطلق أحدهم بوق السيارة خلف سيلفيا، كانت الإشارة خضراء ولكنها لم تلحظ ذلك لأنها لم تستطع أن ترفع نظرها عن ابنتها. كم كانت مثالية. لا مثيل لها على الإطلاق ومتكاملة بكل ضآلة حجمها، الوجه الصغير الجاد، زغب الشعر البني، فقاعات اللعاب التي تجمعت في زاوية فمها أثناء نومها. فكرت سيلفيا في نفسها قائلة، لقد صنعت ذلك، وشعرت بموجة دافئة من الفخر والحب والقلق على الطفلة تغمرها، مما جعل عينيها مبللتين بالدموع مرة أخرى.

لقد صنعت هذا المخلوق وحدي تمامًا.

لقد أرادت أن تحجب مشاركة مارتن في المستقبل، أن تمحو ببساطة ذكراه من عقلها، بشكل كامل وإلى الأبد، حتى يختفي كل شيء ولا يعود يؤلمها. بدءًا من لقائهما الأول في حانة روتين هيرش،

حيث كان يجلس أثناء مناوبتها. ثم جاء مرارًا وتكرارًا، وبالمصادفة، عندما كانت تعمل، في أيام الخميس والجمعة، كان زملاؤها يسخرون من الرجل الذي كان يبدو عليه أنه من أصحاب المال، ولم يكن مناسبًا في هذا المكان على الإطلاق. شعره شديد القصر بعض الشيء وملابسه جديدة للغاية بعض الشئ. حذاء رياضي جلدي. ربما كان يشعر بالملل من السيدة العجوز في المنزل في حي شارلوتنبورغ أو داهليم، وأراد أن يستنشق هواء الليل في حي كرويتسبرج. كان قد شاهد سيلفيا وهي تغسل الكؤوس وتفتح معلبات الجعة، لكنه لم يحاول التحدث إليها. إلى أن دخل عليهم ذات مساء تورستن، حبيبها السابق، ثملًا وعدوانيًا وراح يصيح في وجهها ويهينها من وراء نضد الحانة. حينها لف مارتن ذراعه خلف ظهره دون كلمة واحدة وبحركة طبيعية تمامًا، كما دفعه بيده الأخرى من خلف عنقه. ورأت سيلفيا من خلال النافذة كيف قال مارتن شيئًا ما لتورستن في الخارج، ومن الواضح أنه أثار إعجابه كثيراً لدرجة أنه غادر ولم يحضر إلى حانة روتين هيرش مرة أخرى لعدة أسابيع.

ورغم أن سيلفيا لم يكن من طبعها مطارحة الغرام مع كل من يخلصها من مضايقات أشخاص لحوحين في الحانة، إلا أن هذا

ما حدث مع مارتن تحديدًا. فقد اتسم بالأدب الشديد والمراعاة، فضلاً عن كونه يتمتع بشهامة تشبه أخلاق الفرسان. وهو ما اعتبرته سيلفيا مؤثرًا وغير معتاد. على سبيل المثال كيف بدأ يخلع عنها ثيابها وهو يقف عاريًا لأول مرة في غرفتها ثم يتأملها بإعجاب شديد كما لو أنه لم ير شيئًا مثلها من قبل أبدًا. كما لو كانت سيلفيا تمثالاً إغريقيًا كامل الأوصاف ولا يقدر بثمن. وكيف اعتبر حياتها مشوقة، البيت الذي كانت تملكه في السابق، السكن المشترك، عملها في الجمعية التعاونية لبيع الفاكهة والخضروات وكذلك في الحانة، المبادرات السياسية التي تنخرط فيها. وقد امتص هذا كله وتشبع به بكل شغف لأنه كان النقيض من حياته، حي جرونفالد في برلين، نادي المراكب الشراعية، دراسة القانون، ثم الشراكة في مكتب والده للمحاماة، وزفافه على حب فترة الدراسة.

لم يتحمس شركاؤها في السكن لوجود الضيف الجديد الذي كان يجلس في المطبخ من حين لآخر وهو يشعر كأنه غريب. حتى قال عنه ديرك: "يبدو كأنه واشي ياسيلفيا. مثل شرطي متخفي في زي مدني."

وقالت إيريس: "لا، إنه أبعد ما يكون عن ذلك. فهو لا يريد سوى إلهاء نفسه عن وجوده الحزين كمواطن. لا تقعي في غرامه."

لكن الأوان كان قد فات بالفعل حينها. وسيلفيا كان ينبغي عليها أن تعرف أنها كانت مجرد انحراف عن خطة حياة مارتن، إلا أنها سقطت في مصيدة ميلها إليه عاطفيًا ولم تعد قادرة على الخروج منها ثانيةً. إذ لم تكن سيلفيا معتادة على أن يتودد إليها أحد بهذه الشدة، وبهذه الطريقة القديمة. فقد منحها مارتن الشعور بأنها جميلة ومرغوبة بدرجة تتجاوز البشر، بينما كان يستلقي معها في فراشها الصلب القديم من طراز فوتون الياباني المثبت على ألواح خشبية. كان يريد أن يسافر معها بعيدًا عن برلين ثم يرى العالم، ليتحرر أخيرًا ولا يتعين عليه تحقيق أية توقعات. لم تكن سيلفيا تريد أن تعترف لنفسها بذلك في البداية، لكنها كانت كلما عرفت أكثر عن حياته، بدأت تتخيل أن تصبح هي نفسها جزءًا منها. إذ كانت تعتقد أنه ربما حان الوقت لترك السكن المشترك وعيش حياة مختلفة. وربما كان بإمكانهما إنقاذ بعضهما، أي تنقذ سيلفيا مارتن من التورط والانغماس التام في نموذج حياة جاهزة مسبقًا مع امرأة لم يعد يرغب

فيها منذ وقت طويل. وينقذ مارتن سيلفيا من حياة بين أثاث الروبابيكيا المستعمل.

عندما أدركت سيلفيا أنها حامل، لم تخبر مارتن أي شيء عن ذلك في البداية. بدا الأمر وكأنه هاجس بالنسبة لها اليوم. لقد أرادت بالتأكيد هذا الطفل، وأرادت أن تقنع نفسها لفترة من الوقت بعد أن مارتن سوف يريده أيضًا. إلا أنه لم يرغب به. لم يرد الطفل، كما لم يعد يريد سيلفيا أيضًا فجأة. كم أصبح وجهه قاسيًا عندما صارحته بأنه سيصبح أبًا. إذ نظر إليها كما لو أنها خلعت قناعًا وأظهرت له الآن وجهها الحقيقي القبيح.

"رخصة القيادة ورخصة السيارة والبطاقة الشخصية!"

سلمت سيلفيا أوراقها إلى موظف حرس الحدود عند نقطة الحراسة الأولى لمعبر درايليندن الحدودي عبر نافذة السيارة، وكانت قد وجدت رخصة السيارة في درج القفازات لحسن الحظ، كما قد تخلصت من علبة بيرة فارغة وكيس به كمية صغيرة من مخدر

الحشيش في الوقت المناسب عندما زودت السيارة بالوقود. ولم تصدر هانا أي صوت في سريرها الصغير المصنوع من سلة الغسيل.

"أسلحة، ذخيرة، أجهزة إرسال؟"

نفت سيلفيا وجود كل هذا وبدت مسالمة قدر المستطاع. وضع موظف حرس حدود ألمانيا الديمقراطية أوراقها عند السير الناقل الصغير المؤدي إلى كشك الحراسة التالي، حيث دس زميله العصا ذات المرآة بلا مبالاة أسفل سيارتها ليفحصها ، ثم ألقى نظرة خاطفة على صندوق السيارة، وأعطاها إشارة برأسه كي تمضي في طريقها.

لم تكن سيلفيا على أي من قوائم المطلوبين وصورتها في جواز السفر لا تزال تشبهها بقدرٍ كافٍ؛ شعر كستنائي طويل أشعث قليلاً وغير ممشط دائمًا وعينا والدها الخضراوان وثلاث حلقات فضية صغيرة في كل شحمة أذن، وبعض النمش الذي جعلها تبدو أصغر من 33 عامًا. كان حارس الحدود في كشك الحراسة الثاني قد أمسك ببطاقة هويتها في يده ونظر إلى وجهها بحزم وقليل من الاستخفاف

، ثم عاد لينظر إلى الصورة ومن ثم إليها. تماسكت سيلفيا أمام نظراته، على عكس نظرات مارتن. لم تكن قادرة على تحملها.

ظل مختفيًا ببساطة طوال بضعة أسابيع. ثم بحثت سيلفيا في دليل الهاتف عن رقم مكتب المحاماة الخاص به واتصلت بالرقم وأخبرت امرأة على الطرف الآخر من الخط اسمها وأفادت بأنها تريد التحدث إلى مارتن فان دير كامبن. فقالت المرأة: "لحظة من فضلك"، سمعت سيلفيا صوت طقطقة مرتين على الخط ، ثم سمعت سيلفيا المرأة تقول لها أن السيد فان دير كامبن ليس موجود لسوء الحظ ، فقد كان لديه وزوجته موعد مهم عند العمدة الحاكم. كانت تلك كذبة، بل وكذبة محددة للغاية بحيث لا يمكن أن تكون الحقيقة. وأي سكرتيرة تلك التي تذكر الزوجة لو لم يطلب منها رئيسها ذلك صراحة؟

"زوجة" – كما بدا وقع ذلك جميلاً.

استردت سيلفيا أوراقها ومذكرة بها تأشيرة العبور والإقامة المؤقتة، ثم سمحوا لها بمواصلة رحلتها. لم تقد السيارة بسرعة أكثر من 100 كم في الساعة، لكن تلك كانت أقصى سرعة يمكن أن تسير بها سيارة ديرك ماركة بولو على أية حال. كانت تحب الصوت المنتظم الذي تصدره الإطارات على الخرسانة بالطريق السريع، ولم يبدو أن هانا كانت تمانع أيضًا، فقد استمرت في نومها فحسب.

كم كانت تشعر بالخجل من انكسار قلبها. كيف كانت تمشي في حي كرويتسبرج وبطنها يزداد حجمًا يومًا بعد يوم، ولا تريد سوى أن تختفي، وأن تنشق الأرض وتبتلعها داخل كهف تحت الأرض حيث يمكنها أن تلد طفلها في هدوء. كان شعورها بالضعف وحلمها بحياة برجوازية رتيبة بمثابة الخيانة الكبرى لكل شيء كانت تؤمن به في الواقع. وكونها تبكي حتى الآن بعد رحيل هذا الرجل: أكبر إذلال ممكن.

قال زيكي: "فلتفرحي لأنك تخلصتي من ذلك الوغد، إنه لا يستحق البكاء عليه"، وأومأت إيريس وديرك برأسيهما. ولكن عندما فاجأتها آلام المخاض، كان عليها أن تذهب إلى المستشفى بمفردها وهي تقود دراجتها. على الأقل هناك كان بإمكانها أن تصرخ لتخرج كل ما في داخلها، كل الحزن وكل الغضب، مع كل انقباض. وقد لاحظت كيف كانت تشعر بأنها أقوى مع كل مرحلة من مراحل هذه القوة الطبيعية التي استحوذت على جسدها. كيف استطاعت أن ترمي بنفسها في الألم وتغوص فيه.

قالت القابلة الشابة: "أنتِ تبلين بلاءً حسنًا يا سيدة بوروفسكي، فلترفعي صوتك كما ترغبين، لن يطول الأمر أكثر." وفكرت سيلفيا في نفسها قائلة: "نعم، أنا أبلي بلاءً حسنًا، أنا أقوم بعمل جيد جدًا. اللعنة، لم يسبق لي أن قمت بأي شيء بشكل جيد حقًا في حياتي، ولكن يمكنني القيام بذلك."

تململت هانا بجانبها في مقعد الراكب المصاحب وتحركت وأصدرت أصوات مضغ صغيرة ناعمة، وعلى الفور بدأت سيلفيا تشعر بالشد والنخزة في ثدييها. كان من الواضح، الآن أنها سيتعين

عليها أن تقود سيارتها إلى أحد مواقف السيارات لترضع طفلتها تحت أعين بعض رجال البوليس السري. ولكن لم يكن من الواقعي منذ البداية أن تعتقد أنها ستكمل طريق العبور دون توقف على الإطلاق. لم تكد تصفّ سيارتها البولو تحت شجرة على حافة أقرب موقف سيارات، وتخرج هانا الباكية من سلة الغسيل وترفع قميصها فإذا بشرطيين يقفان بالفعل بجانب سيارتها ويطرقان على النافذة.

"نعم"، أخبرتهما أنها سرعان ما ستواصل السير.

"نعم"، أخبرتهما أنها تعلم أنه غير المسموح بالوقوف هنا إلا في حالة الطوارئ، ولكن رضيعتها تشعر بالعطش.

ووعدتهما بالتحرك خلال عشر دقائق، ليس أكثر.

تمركز الشرطيان بعدها أمام سيارتها وأخذا يحدقان في صدرها من خلال الزجاج الأمامي، حيق كانت هانا ترضع بكل تركيز.

عندما رقدت هانا على بطن سيلفيا للمرة الأولى كان ذلك شعور لا يوصف. إذ لم يحدث من قبل قط أن شعرت سيلفيا بنفسها مرهفة الحس ومفعمة بالحب هكذا. بعد أن قضت ليلتين في المشفى،

مر عليها ديرك ليصحبها بالسيارة وأعادها إلى الشقة، حيث جلسا معاً على الأريكة البنية المخملية وأخذا يتعجبان من تلك المعجزة الصغيرة، والأظافر الصغيرة، والأنف الصغيرة، والأذنين المطبقتين. كان الجو العام في الشقة المشتركة شديد القدسية في ذلك اليوم الأول، فكان الجميع يتهامسون. لكن ذلك توقف بعد فترة قصيرة وعاد كل شيء إلى سابق عهده وطبيعته المعتادة.. ليعود الجميع إلى إقامة الحفلات والتدخين والمضاجعة والشجار والنقاش، ولكن دون سيلفيا التي كانت تستلقي على فراشها الفوتون مع هانا وهي تنزف وتعاني من ثديين ملتهبين. كانت قد اتصلت بمكتب المحاماة مرة أخرى وطلبت من السكرتيرة أن تخبر السيد فان دير كامبن أن ابنته قد ولدت وأن اسمها هانا. وعلى عكس كل التوقعات والاحتمالات كانت تأمل أن يأتي مارتن راغبًا في رؤية هانا ومن ثم يصبح كل شيء على ما يرام بعد كل هذا، أو على الأقل مختلف، لكن مارتن لم يأت. بدلاً من ذلك اتصل بها ذات يوم ليخبرها أنه لن يعترف بالأبوة، وأنه لا يريد أي اتصال بها، لكنه مستعد لتحويل مبلغ ثابت كل شهر إليها بشرط أن تلتزم الصمت بشأن علاقتهما، وأن تبقى بمنأى عنه في المستقبل.

عندما قدمت سيلفيا أخيرًا تأشيرة عبورها وأوراقها مرة أخرى إلى حارس حدود ألمانيا الديمقراطية من خلال نافذة السيارة عند معبر مارينبورن الحدودي، وقادت السيارة أخيرًا إلى داخل ألمانيا الاتحادية انتابتها الشكوك حول ما إذا كانت هذه فكرة سديدة حقًا. فقد ترجلت من أعالي جزيرتها لتعود على الأرض اليابسة مرة أخرى، كانت قد اتبعت دافعًا قديمًا، شعورًا بالكاد تتذكره، لم ينتبها منذ فترة طويلة. ربما كان ذلك بسبب الهرمونات أو الظروف أو كلاهما. لكنها بعد رسالة مارتن ظلت حبيسة غرفتها ولم تغادرها تقريبًا لمدة أسبوعين، حيث لم تفعل شيئًا سوى الاستلقاء في سريرها والبكاء مع هانا، حتى جاء ديرك في وقت ما ليسألها إن كان كل شيء على ما يرام الآن، وإذا كان كل هذا بسبب ذلك الوضيع، وإذا كان بإمكانها أن تقرضه خمسة ماركات من أجل السجائر. حينئذ فكرت سيلفيا في البداية فقط ثم همست بهدوء قائلة:

"أريد أمي."

وبمجرد أن تفوهت بتلك الكلمات، نمت هذه الأمنية بداخلها وأصبحت أكبر وأكثر إلحاحًا ووضوحًا. أرادت سيلفيا رؤية والدتها التي لم ترها منذ سنوات ونادراً ما تحدثت معها، أرادت أن تأخذ هانا

لتبتعد عن برلين بكل بساطة، تبتعد عن هؤلاء الناس، الذين كانت تعتقد أنهم وطنها، تبتعد عن هذ السكن المؤقت، عن الشقة. أرادت أن تجلس في حديقة طفولتها القديمة تحت المظلة الصفراء لتتناول كعكة الغابة السوداء، أرادت أن تجلس على أريكة الزاوية لدى السيدة هاجرل وتلتهم حساء الفطير، أرادت العودة إلى المكان الذي كانت قد هربت منه قبل سنوات عديدة مضت، والعودة إلى أمها، التي شعرت فجأة بأنها قريبة منها بشكل غير مفهوم، على الرغم من كل ما حال بينهما. لابد وأن هانا ستعوضهما عن كل ذلك. إذا كان هناك أي شخص يستطيع أن ينفذ إلى داخل جلد الدكتورة إيفلين بوروفسكي السميك، فستكون هذه الطفلة، كانت سيلفيا متأكدة من ذلك.

ما هي إلا خمس أو ست ساعات حتى تصل إلى إلدينجن إذا صمدت السيارة البولو. حيث تنحرف بعد مدينة شتوتغارت من الطريق السريع، ثم تسير فترة أطول قليلاً على الطريق الريفي عبر مزارع الكروم، بمحاذاة النهر. ستقود سيارتها مباشرةً عبر المدينة، مرورًا بالكنيسة وساحة السوق الصغيرة، ومطعم تسوم أوكسين، ثم أعلى التل الصغير، مرورًا بالحي السكني وأكشاكه ذات الأسقف

المسطحة والملعب الرياضي والنادي، ثم على مشارف القرية إلى اليمين، حيث تصطف تحت الأشجار العالية المنازل القديمة المنفصلة وصولاً إلى طريق بوخينفيج رقم 14. سوف يُفاجأ الجيران بالسيارة التي تحمل لوحة برلين وينسجوا حكاياتهم في هذا الشأن، سينتشر الخبر الذي سيتناقله الجميع على أية حال في غضون يوم واحد، أن الابنة الضائعة قد عادت. تصورت سيلفيا كيف ستصعد الدرجات الثلاثة المؤدية إلى باب البيت الأمامي وتضغط على جرس الباب. مجرد تخيل ذلك كان يسبب لها خفقان شديد من قلبها حتى قمة رأسها. وتخيلت كيف سينفتح الباب لتقف والدتها هناك، صارمة وصامتة، وشعرها ملتصق برأسها في تمويجة قصيرة، وتبدو نظراتها واضحة بشكل قاطع. ستتفحص إيفلين سيلفيا وتفهم كل شيء في ثانية واحدة، ولن تندهش على الإطلاق.

ثم تقول سيلفيا: "مرحبًا يا أمي"، وتأمل ألا يرتجف صوتها. "هذه هانا. حفيدتك".